

العقيدة

كان الإسلام في مراحله الأولى عقيدة محدودة في الجزيرة العربية ، أما اليوم فإنه بوصفه قوة عالمية - قد صار عقيدة وثقافة توحدان بين شعوب أشد ما تكون تباينا : والإسلام بوصفه شريعة ، هو همزة الوصل بين هاتين الناحيتين : أعنى بهما العقيدة والثقافة . ومن ثم يمكن أن نستخلص في إيجاز ثلاثة مظاهر للإسلام : — (١) العقيدة (ب) الانتشار (ج) الثقافة ولعل من الأوفق — إن لم يكن من الأدق — أن تطلق هذه الأسماء على أدوار ثلاثة في التطور التاريخي للإسلام .

ولم يكن مفر من أن يدور حول الأمور الثلاثة شيء من سوء الفهم الذي ألم بالآراء التي كونت عنها .

ولا يزال أتباع محمد (ص) يهتمون بالكثير من التهم الباطلة . ويعانون إلى اليوم مما أذاعه عنهم خصومهم في العصور الوسطى من تخرصات أساءت إلى سمعتهم ، كما أن أوروبا تنظر إليهم اليوم بالعين التي كانت تنظر بها إليهم أيام الحروب الصليبية . وقد بذلت في الحقبة الأخيرة جهود يقصدها استكشاف ماقد يكون منجماً من الحقائق تحت مجموعة الروايات والمأثورات التي نجدها في المصادر المسيحية أو الإسلامية حول التاريخ المبكر لتلك الحركة الجديدة وأعنى بها الإسلام . والإسلام عقيدة جديدة ، وديانة عربية أصيلة . وذلك رأى صحيح . ولعمري إن الجزيرة العربية مهد العقيدة ومنبتها ، وإن العقيدة احتفظت ببعض تقاليد العرب وسننهم الاجتماعية ، التي أثرت في بعض مناسكها .

ولم يكن الإسلام عقيدة جديدة فقط ، بل كان أيضاً تأكيداً لاستمرار الوحي لأهل الكتاب . فإن سلسلة الأنبياء لاتنقطع : وفيها إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد . وتعاليم الإسلام إن هي إلا تأكيد جديد ، وتعديل موحي به لأسمى ماتحتويه المسيحية واليهودية من عناصر . تلك العناصر التي غطت عليها المؤثرات الهلنستية^(١) . وقد اعتقد كثير من المؤرخين أن الفتح الإسلامي مظهر لحرب صليبية أو دينية عامة يشنها مقاتلة منعبون حالمون ، يشهرون السيف في يمينهم ويحملون القرآن في شمالهم ، وقد وطدوا العزم على إدخال الكفار كرها في دين الله وهو قول لا ينطبق إلا على موقف الإسلام حيال المشركين من أهل الجزيرة . إذ الواقع أن الاسلام فضلاً عما جبل عليه من تسامح شديد مع غير أبناء دينه لم يكن إلا حركة دينية عاصرت الحركة القومية ببلاد العرب^(٢) ، وكانت هذه حركة تقودها أرسنقراطية من المسكرين شديدة الأخذ بالنزعة الواقعية ، وترى أن اعتناق الشعوب المقهورة للإسلام كرها ليس من حسن السياسة في شيء . أما الثقافة الإسلامية فلم تكن كما ظن كثير من الناس حضارة أسيوية شديدة المناقضة للحضارة الأوروبية . بل هي على العكس من ذلك بنت بيشها ، فهي إحدى ثمار تلك العناصر التي صيغ منها مجتمعة الأساس الذي قام عليه أيضاً الفكر المسيحي في عصوره المبكرة . وهو اتحاد

(١) وعنا نسير إلى آراء كتاب الصور الوسطى تلك الآراء التي ظل الإسلام يقاسي منها إلى اليوم والتي ظلت تحجب عيون أوربا عن رؤية الإسلام على حقيقته . وهم وإن لم يرموه بالوثنية فقد اعتبروه فرقة خارجة (كذا ! ! ! . . .) انظر مقارنات بوحنا الممتنى في القرن الثامن . وانظر هانتي في السكوميديّة الإلهية (Historie de Byzance) (فاسيليف ج ١ ص ٢٧٤) (Seminador di scandaloedi scisoma)
(٢) وسواء أجاز لنا تقبل نظرية كانياني التي تذهب إلى حدوث عملية متواصلة من الجفاف (inaridimento) في شبه الجزيرة العربية أم لم يجرز تقبلها فالواقع أنه لا يمكن إنكار أهمية العامل الاقتصادي بين أسباب الهجرة العربية .

الثقافين الملهينسية والسامية . ذلك الاتحاد الذى شمل الشرق الأدنى بأكمله .
وعندى أن هذا الأساس المشترك إنما هو إلى حد كبير ، السبب فيما أحرزه
الإسلام من أثر قوى على ثقافة أوروبا فى المصور الوسطى . ولاشك أن انغموسة
الدينية أفضت إلى إسدال ضباب الإلهام والغموض على المصدر المشترك لثقافة
الإسلام والمسيحية : وأعنى بذلك اشتراكهما فى التراث الذى وهبته للبشرية
فتوح الإسكندر . على أنه يمكن تتبع هذه المشاركة على امتداد التاريخ الإسلامى
بأجمعه ، على الرغم من تفوق العناصر الشرقية وازدياد بروزها ، نتيجة انتشار
الإسلام فى الأقاليم الشرقية ، وانتقال العاصمة من الشام إلى العراق . وسنبعث
الآن عن تفسير لهذه المفارقات الظاهرية .

بلاد العرب قبل ظهور محمد (ص)

إن الحركة المباحثة التى أطلقت على العالم فى القرن السابع الميلادى شعبا
عربيا فاتحا ، إنما هى من المفاجآت المثيرة فى التاريخ . إذ إن بلاد العرب من
البلاد التى لم تهبط طبيعتها لتكوين حكومة موحدة ، وهى حقيقة لم تفت
كلاما من روما وفارس وتركيا وبريطانيا العظمى ، كل واحدة منها بدورها على
كر التاريخ . ومن المعلوم أن الشطر الأكبر من أراضيها صحارى ورمال ، يجوبها
البدر الرحل ، الذين تأصلت فيهم النزعة الفردية بحكم السليقة والتدريب ،
وهى نزعة لا تعترف بأية رابطة ولا تدين بأى ولاء إلا فى حدود القبيلة ،
أو حتى العائلة فى بعض الحالات . على أن العربى المتحضر النازل على الأطراف
الخصبة والذى ألف حياة المدن ، واشتغل بالتجارة أو الزراعة ، وكان له
اتصال دائم بالأمم المتحضرة ، والذى عمل وسيطا فى التجارة المتبادلة على
الطرق التجارية الكبرى بين الشرق والغرب — ذلك العربى كان تقيضا

لإخوانه البدو الرحل . ومع ذلك لا يكاد يحق لنا أن نتوقع العثور هنا على وجهة نظر قومية . على أنه حدث في أقصى الجنوب العربي ، أن أقاد سكان اليمن من تجارة البحر الأحمر وبلغوا بفضلها قدراً من الوحدة ، كما تشهد بذلك آثارهم ونقوشهم — تحت حكم ملوك سبأ . ومع أن الغزو الحبشي قضى على أهميتهم السياسية قبل ذلك بقرن^(١) ، فإنه لم يستطع أن يغير الأحوال التي هيأت لليمنيين نصيباً ضخماً من التجارة مع الشرق الأقصى . أما في الشمال ، فقد أدركت روما وفارس أن مصلحتهما تقضى عليهما بتشجيع قيام سلطة مستقرة بين القبائل المتجولة في ربوع شرق الأردن والنيافي المترامية التي تمتد من فلسطين إلى نهر الفرات ، وهو نفس الشيء الذي فعلته الدول العظمى في الأزمنة الحديثة . فقام ملك الفساسنة على أطراف الشام بموازرة روما ، على حين اتخذت فارس من مملكة الحيرة « دولة حاجزة » وهي الدولة الفنية التي تعتبر المركز التجاري على الفرات الأدنى . ومع ذلك ، فإن كلا من هاتين الدولتين التابعتين قد زالت من الوجود قبل ظهور الإسلام بزمان قصير . وإذا انتقلنا إلى الغرب ، وجدنا عرب الحجاز يعيشون عيش الاستقرار وإن لم يتحدوا سياسياً . وقد مارسوا الزراعة بالجزء الشمالي من البلاد ، إذ إن بئر التي عرفت فيما بعد باسم المدينة ازدهرت بها حرفة فرس النخيل ، وأقام بها عدد ضخم من السكان يتألف من زراع من اليهود والعرب . وعلى مبعدة مائتي ميل جنوباً على طريق القوافل الرئيسي الذي يسير على امتداد ساحل البحر الأحمر كانت تقع مدينة مكة ، التي كانت تدين برخائها كله للتجارة . وكان تجارها يزودون أسواق سورية والمغرب بالبخور وخشب العطور الواردة من جنوب بلاد العرب ، فضلاً عما يرد من سلع الهند وأقصى آسيا ، التي حالت العداوة

(١) انظر ص ٢٠١ بعنوان البشائر البصرية والديبلوماسية .

بين روما وفارس دون اجتيازها طريق الفرات القصير . وكانت مكة أيضاً مثابة دنيبة تقوم بها « السكبة » وحجرها الأسود الحافل بالأسرار وهي البيت العتيق الذى يجتنب الحجاج من كل أرجاء العالم .

ولم تكن الديانة فى بلاد العرب بأوفر من السياسة حظاً من التنظيم ، وكانت عناصرها الأساسية المقدسة هي المزارات والأضرحة المحلية والأهمة والحظائر المسورة المقدسة والشعائر الموروثة وعدد كثير من الأبواب البدائية الفامضة . وقد أدخلت المجتمعات اليهودية والمسيحية النازلة بالمناطق الساحلية عقائدها . هل أن عقائدها هذه كثيراً ما كانت فى صورة منحطة أو مبتدعة . غير أن الغالبية العظمى من السكان ظلت متمسكة بعقائدها العتيقة ، التى لم تتجاوز فى معظم الحالات ما كان معروفاً من قديم الزمن فى كريت وفلسطين من عبادة الأحجار النيزكية . ولاشك أن مثل هذه العبادات لم تعش نتيجة لشعور دينى أصيل بل من استمرار التقاليد والمعادن . ولم يحاول أحد من العرب البحث فى اللاهوت ، وإن كان يبدو أنه قد ظهرت حركة تنجيه نحو التوحيد . ولعل مكة هي أم مثابة دنيبة عند القبائل ، وتحيط بها منطقة حرام مقدسة . وزاد فى مكانها وأسهم فى رخائها التجارى منسك الحج واحتفالاته التى تقام بها كل عام .

حياة محمد عليه الصلاة والسلام ،

ولد محمد بمكة حوالى عام ٥٧٠ م . وكان ينتسب إلى المجتمع التجارى النازل بها ، ويبدو أنه أدرك عند سن الثلاثين درجة معقولة من الفنى . والوصول إلى بيان مقنع عن خلقه من المصادر التى بين أيدينا ليس بالأمر اليسير . وإن جرت العادة عند الشعوب القديمة أن تكون لنفسها صورة هامة لقبوة . والنسوة

— كما هو معلوم — طراز مألوف في الشرق — وليس مختصاً بفرد بذاته — وفي أثناء « الفترة المسكية » من حياته ، وهى المدة التى كانت دعوته الناس خلالها سرّاً ، تجمع حوله فئة قليلة من المريدين المخلصين . ولم يكن بد من أن تستثير الموضوعات الأساسية التى دعا إليها ، معارضة قوية من الماديين المحافظين ، الذين تأصل لديهم العرف القديم والأخلاق القبلية . ولم يقابل مذهبه فى وحدانية الله بأى نقد ولا معارضة ، ولكن إنكاره لقيمة الألوهة المحليين كشفعاء ، وتشديده القوى على ضرورة أداء الزكاة والرحمة بالضعفاء ، وأكثر من كل ذلك تأكيده اقتراب يوم القيامة — تلك المبادئ التى ظل محمد يدعو إليها بحماسة بالغة مستنداً إلى الوحي ، كل ذلك لم يكن بد من أن يثير مخاوف وشكوك قوى المكانة من رجال المجتمع القرشى وأن يعتبروها آراء هدامة . فلامحجب أن قبولت دعوته العاصفة وفكره الثائر على مقدساتهم ، بنقد وزرارة من سادة المجتمع هؤلاء ، وهبط عليه الوحي يبررها بالأساليب الجدلية ، أما مبادئه فقد عززت بالأمثلة والأقبيسة المطابقة بصفة رئيسية لما ورد فى الكتب التى يؤمن بها أهل الكتاب من قبله . ولم يعد عليه هذا الاستدلال المنطقي إلا بزيادة عمق الهوة التى تفصله عما كان يعبد قومه ، ومن ثم أخذ الوحي يزداد تنديداً بشرك مكة وعبادتها للأوثان ، على أن حكمة الله اقتضت فيما بعد أن يميز النبي بعض شعائر الكعبة ويتخذ منها وكناً جوهرياً فى الدين الجديد .

وكانت سنة (٦٢٢) نقطة التحول فى سيرة النبي (ص) . وهى السنة التى تمت فيها الهجرة ، حين غادر محمد (ص) مسقط رأسه مكة واتجه إلى المدينة وكانت بيتنها أكثر ملاممة للتعاليم الجديدة . وكان كلما زاد أتباعه عدداً اشتدت الحاجة إلى القوانين والتنظيمات . ومن ثم كثرت نزول آيات التشريع فى أثناء الفترة المدنية من رسالته . هذا وإن الأهمية السياسية الجديدة التى بلغها محمد (ص) لتنعكس فيما نزل من الآيات العديدة التى تحوى الحدود وتمثل

القانون المدني والجنائي ، فضلا عن عدد من الشعائر والسُنن الدينية . ولم يلبث محمد (ص) على الرغم مما لقي من السكان اليهود من معارضة ، أن بسط سيطرة الإسلام على مجتمع المدينة ، وأن جمع حوله مجموعة ضخمة من المؤمنين ، الذين أسلموا أنفسهم لله ورسوله على نحو ما تدل عليه كلمة « إسلام » . وكانت خطوة هامة تلك التي عول بها محمد (ص) على اعتراض سبيل قوافل مكة بوصف ذلك ضربا من الانتقام الإلهي من الكفار الذين آذوا أتباعه وشرذوم من ديارهم . والحق أنه لم يتنبأ شيء أشد إقناعاً للعرب بصديق دعوة محمد (ص) ، من النجاح الذي أصابته غزواته تباعا . وعقد المكيون وغيرهم ممن أضرت بهم هذه الغزوات اثتلافاً قوياً لهاجمة المدينة ، بيد أن ذلك الائتلاف لم يفز بباطل ، ومن ثم أصبح السبيل ممهداً لعودة النبي ظافراً إلى مكة (٦٣٠) . وعندما توفي محمد (ص) في (٦٣٢) كان الحجاز كله يدين بالطاعة لسلطانه السياسي والديني كما أن الاحترام الذي كانت تلقاه جيوشه بكل أصقاع الجزيرة أكبر شاهد على أن قوة جامعة ومركزية جديدة قد نشأت ببلاد العرب . وبذلك لقي ما قام به النبي من الأعمال الجزاء الأوفى من الله تبريراً وتزكية .

العقيدة

من الجلي أن أساس الإسلام كان دينياً محضاً . إذ إن الحاجة الماسة إلى ضم من حوله من الناس إلى عقيدته ، هي الحافز الذي دفع مؤسس تلك العقيدة إلى العمل على اكتساب أتباعه الأولين . على أن العناصر السياسية لم تظهر إلا بعد الهجرة إلى المدينة .

فند تلك اللحظة أضحت انتشار الإسلام مرتبطاً بسيادة المدينة وسلطانها . على أن الجميع كانوا مسلمين طالما اقتصر نمو الإسلام على بلاد العرب . ولكن

عندما انتشرت قولات العرب في أرجاء الشرق الأدنى وشمال أفريقيا ، وهي مهاد الحضارات القديمة ، صار الوضع مختلفاً ، وإذا بالعرب المسلمين يقيمون «دولة» . ولكنها دولة تنصف بالتسامح المطلق . وبدلاً من أن ينشر الفاتحون معتقداتهم بحمد السيف ، تركوا رعاياهم أحراراً في ممارسة عقائدهم على شريطة الاعتراف بسيادة العرب والالتزام بأداء الجزية المفروضة . فاحتفظ العرب بما للبلدان المغزوة من نظم إدارية وتجارية وقامت البواعث الاقتصادية بدورها . وبهذه الوسيلة تحققت المساواة الاجتماعية بين الغالب والمغلوب ، كما أن العناصر المشتركة بين المسيحية والإسلام ، ذلت العقبات التي تحول دون اعتناق الإسلام - غير أن عملية اعتناق الإسلام لم تتم إلا رويداً رويداً . ومن ثم فإن الفتح السياسي الذي أنجزته الجيوش العربية سبق طبع ذلك الشرق بالطابع الإسلامي بمدة مائتي سنة أو ثلاثمائة .

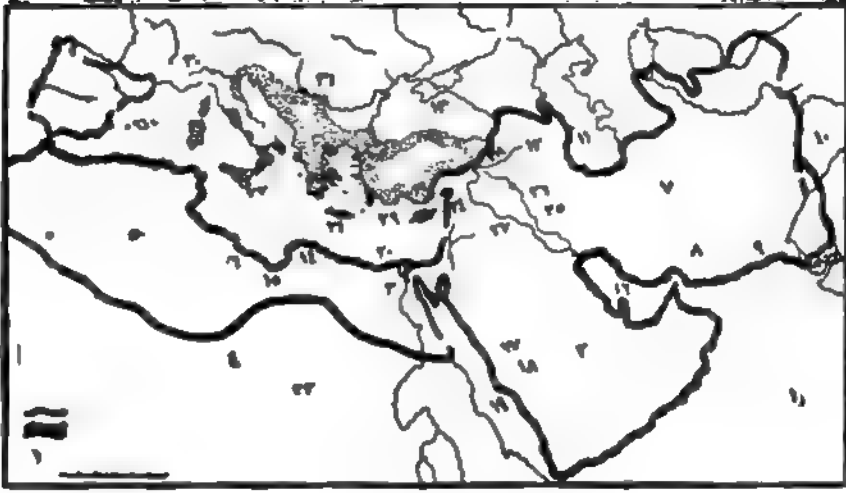
الباب التاسع

الفتوح الإسلامية

كان للدين الإسلامي — كما رأينا — الفضل في تنظيم المدينة . وأدى ذلك التنظيم إلى جمع كلمة العرب ودفهم إلى الفتح العسكري : ونبتت عن هذا المجتمع دولة . ولاشك أننا نلص مفتاح هذه الحركة في صفات الخلفاء الراشدين . فقد أعقبت وفاة محمد (ص) ثورة عامة يبلاد العرب على سيطرة المدينة ، وكأنا قد قدر للإسلام أن يجر صريعاً في تلك اللحظة إزاء ما تعرض له من حركة جارفة من الشعور القبلي والتزعزعات الفردية . ولم يتخذ الموقف إلا القواد المسلون الذين اشتهروا بالقوة والشدة فقادوا جيوش المدينة لقتال القبائل التي تكن وسط شبه الجزيرة العربية . والواقع أن هؤلاء القادة — هم وحدهم دون المتأملين الذين ملأ الإسلام قلوبهم — هم الذين قادوا حركة قمع المرتدين . فاستطاعوا بما شنوه من حملات سريعة بسط سيادة الإسلام ثانية على الجزيرة العربية ، وتمكنوا من جمع شتات العناصر المتحاربة كلها في حلف واحد ، وبذلك أعدوها للقيام بأعمال الفتح . ولكن قبل أن يتم إخضاع بلاد العرب ، بدأت الغارات الأولى على الشام والعراق ، التي كانت تشنها جيوش قليلة العدد ، ليس لديها إلا فكرة ضئيلة عن الفتح الثابت المنظم ، واجتاحت كل شيء أمامها ، كما أن ما أحرزته تلك الجيوش من انتصارات جارفة في اليرموك والقادسية^(١) قد أتاح لذلك الحلف الحديث النشأة من التماسك ما جنبه التمزق وتفرق الكلمة بإفناذه جموع حشوده على البلاد المجاورة . ذلك أن الوقت قد نهياً فلا لتلك الغزوات . إذ إن أقرب منفذ لتلك القوات

المهادرة هو الأرض الواقعة شمال الجزيرة العربية مباشرة بين إمبراطوريتي روما وفارس .

ولم تمكن الإمبراطوريتان في مركز يؤهلها للقيام بمقاومة منظمة . إذ تلت انتصارات هرقل فترة تفشت فيها الفوضى بدولة الساسانيين ، حتى إذا عاد النظام في آخر الأمر إلى نصابه ، كانت عودته بعد فوات الأوان . على أن مركز دولة الروم (بيزنطة) التي كانت في ظاهرها عظمية القوة والازدهار ، يحتاج منا إلى شيء من التوضيح : ذلك أن ما أحرزته من انتصارات لم يقتصر على تحويل فارس إلى دولة ذليلة لا قدرة لها على القتال وحسب ، بل إن تلك الانتصارات استنفدت موارد الروم بشدة أدت إلى ضياع كل ما استردته حديثاً بمصر والشام من الأراضي في مدى سنوات ثمان . ومن أهم الأسباب التي أفضت إلى تحويل كفة الحظ عنها ، ما أصاب قوتها العسكرية من الانهيار . إذ إن الحملات التي استمرت طويلاً أفسدت نظام جندها . كما أن هرقل الإمبراطور الشيخ الذي انصرف إلى الخصومات الدينية ، لم يعد كعهده قديماً نافذ الكلمة فيهم . وكان الجيش يتألف من عدة أخلاط من الجند . فانخرطت فيه أعداد غفيرة من الأرمن وسكان جبال القوقاز ، وأسهمت هذه العناصر الشاذة في بث الفوضى بين صفوف الجيش ، على حين لم يكن قادتهم الذين ينتمى معظمهم إلى النبلاء الإقطاعيين بيلادم ، أقل منهم تمرداً . وقد أدت هذه العيوب إلى إزال أفسح الأضرار بالقيمة العسكرية لهذين الجيشين المرابطين بالشام ، على حين زادت الأحوال بمصر سوءاً . فإن الدفاع نيط هنا بجند من المليشيا من ملاك الأرض ، وهم قوم لا خبرة لهم في شئون الحرب ، على حين كان يشترك في القيادة خمسة قواد أنداد ، وهو وضع من اليسير تصور ما ينجم عنه من عواقب . وفضلاً عن خطورة الموقف العسكري ، كان هناك خطر



(٩) خريطة العالم الإسلامي

- | | | |
|------------------------------|-----------------|-----------------|
| ١ - المحيط الهندي | ٢ - بلاد العرب | ٣ - مصر |
| ٤ - الصحراء | ٥ - البربر | ٦ - أفريقيا |
| ٧ - فارس | ٨ - كرمان | ٩ - مكران |
| ١٠ - هندوستان | ١١ - بحر قزوين | ١٢ - تفليس |
| ١٣ - البحر الأسود | ١٤ - برقة | ١٥ - طرابلس |
| ١٦ - الخليج العربي (الفارسي) | ١٧ - الحجاز | ١٨ - مكة |
| ١٩ - البحر الأحمر | ٢٠ - الإسكندرية | ٢١ - كريت |
| ٢٢ - صقلية | ٢٣ - القاهرة | ٢٤ - أنطاكية |
| ٢٥ - العراق | ٢٦ - بغداد | ٢٧ - نهر الفرات |
| ٢٨ - أرمينيا | ٢٩ - جزيرة قبرص | ٣٠ - الفرنجة |
| ٣١ - الآفار | | |

أعظم، هو انتشار السخط بين السكان . ولو أن الدولة البيزنطية حرمت أمرها واتبعت سياسة اكتساب رضا الناس وخففت عنهم أعباء الضرائب انتهجت سبيل التسامح الديني ، فلربما كان من المقبول أن تبقى على ولاء الشام ومصر فهو الإدارة البيزنطية . ولكن ما اتخذته هرقل من إجراءات لم يكن منها بد ، حلت على الدولة بتغيير جميع طبقات السكان منه . فإن جميع ما كان بالخزانة الإمبراطورية من أموال قد استنفدته حروب الفتح ، كما أن الولايات التي استردت حديثاً سرهان ما ألزمت بتحمل نصيبها ككل في أعباء الضرائب وتزويد الدولة بالإيرادات . وما زاد الموقف ببلاد الشام تنافساً ، ما كان بين اليهود والمسيحيين من كراهية متبادلة تفجرت فتناً ومذابح هاجت بالمدن الكبرى . وفي (٦٣٤) صدرت الأوامر بتعميد اليهود كرهاً ، على حين أن أنصار مذهب وحدة طبيعة المسيح المسمون بالمونوفيزيتيين ، رفضوا العمل بما عرضه الإمبراطور من صيغة لتوفيق بين المذاهب الدينية ، فأدى ذلك إلى إزلال الاضطهاد بكل من الشام ومصر على السواء . وتنجلى نتيجة ذلك فيما شهد به التواريخ المعاصرة وتراجم الرهبان الأقباط ، التي تعبّر عن الفرح لكل ما حل بالإمبراطورية من هزائم، وتصدعها آية على الانتقام السماوي من « هراطقة خلقدونية » .

فتح الشام

دأب عرب الحمود النازلون على أطراف الشام على الفارة منذ زمن بعيد على مدن تلك النخور ، ولما لم تثر غارات المسلمين الأولى عليها أى قلق في بيزنطة . إذ حدث في (٦٢٩) قبل وفاة النبي بزمان طويل ، أن البيزنطيين صدوا هجوماً قام به العرب على جنوب فلسطين ؛ غير أن العرب ما لبثوا أن قاموا بعد ذلك بخمس سنوات بحركة أعظم قوة . إذ دخل جيشان من الجنوب (١٦ - الصور)

والشرق وأنزلا الهزيمة بقوات بيزنطة . وما وافت السنة التالية حتى كان العرب يسكرون أمام دمشق . وبذل هرقل جهوداً جبارة بأسلة لإتقاذ المدينة ولكنها لم تجدد نفعا ، وما لبثت أن اضطرت بعد ستة أشهر أن تفتح أبوابها . ثم أخفت المدن الباقية نحر الواحدة تلو الأخرى صريمة أمام الغزاة ، ولم تحافظ على كيانها إلا بيت المقدس وقيسارية وسائر المناطق الساحلية . واستعد هرقل بشجاعة لا تتزلزل لتوجيه ضربة فاصلة دفاعاً عن الشام . فلما أقبل الربيع ، زحفت على الشام قوات بيزنطية ضخمة جمعت في أثناء الشتاء بمصيبة محومة . واستردت مدينة دمشق ، وتراجع العرب أمام القوات المتفوقة عليهم عدداً إلى الجانب الآخر من نهر اليرموك . ودارت بهذه المنطقة عدة اشتباكات ، بلغت ذروتها فيما حل بالبيزنطيين من هزيمة ساحقة على نهر اليرموك (أغسطس ٦٣٦) . تقرر بها مصير الشام . وقد ألحق هرقل بكامل قواته في تلك المعركة ، لذا أضاع ما أصابها من شامل التدمير كل أمل في ملاقة العدو مرة أخرى . ومن ثم لم تلبث الحصون أن سلمت واحداً بعد آخر . وما وافت (سنة ٦٣٧) حتى سقطت في أيدي العرب المدن الساحلية : وهي عكا وصور وصيدا وبيروت : وشهدت السنة التالية سقوط بيت المقدس وأنطاكية ، وعندما سقطت قيسارية وهي العاصمة الإدارية للبلاد في (٦٤٠) ، أصبحت البلاد بأسرها تدين للسيادة الإسلامية بالطاعة والإذعان .

وقد ركز العرب على الشام قواتهم الرئيسية المعدة للغزو ، ولم تكن حملاتهم على العراق ذات نطاق واسع ، كما أنها لم تنصب نجاحاً ملحوظاً . على أن ما أحرزه المسلمون في اليرموك من نصر أتاح لهم أن يحولوا اتجاه الفتوح ، بعد أن دارت رحى معركة عظيمة في القادسية (٦٣٧) ، كان أثرها فاصلاً بالنسبة لبلاد الفرس كاليرموك بالنسبة لمستقبل الشام . إذ تراجعت الجيوش الفارسية بغير نظام بعد أن شقت شملها تماماً ، بينما سارع الملك إلى الفرار من عاصمة

ملكه . وعندئذ زحفت القوات العربية على المدائن (طيسفون) فاستولت عليها وانتهت بها . وسرعان ما اجتاحت جيوشهم أرض الجزيرة ، واندفعت جموع المسلمين إلى أعلى الدجلة والفرات ، ومضت في سبيلها حتى اخترقت سلاسل الجبال الأرمينية . وفي نفس الحين ، واصل الفاتحون حملاتهم في الإمبراطورية الفارسية حتى دانت ولاياتها الجنوبية والشرقية بطاعة العرب ، أما آخراً كلسرة الفرس ، فإنه واصل الفرار شرقاً أمام الغزاة ، حتى لقي مصرعاً غير كريم عند صرو على تخوم بلاد الترك . ومما هو جدير بالملاحظة أن حضارة فارس الأصيلة التي لا تمت لسامية بأدنى صلة ، استطاعت بفضل قتاليتها المتنازة التي دامت نحو ألف عام ، أن تبدي من عنيد المقاومة للغزاة ما لم تبده بلاد الشام ولا العراق . إذ إن فتح فارس لم يكتمل حتى بعد انقضاء عشر سنوات ، ونجحت فارس في الاحتفاظ بلغتها القومية وطرائق تفكيرها .

فتح وسط آسيا

لم يعد للإمبراطورية الفارسية وجود عند عام (٦٥٠) ، ولكن قوة الاندفاع العربي لم تكن تبتدئ بعد . ومن ثم صار لزاماً على أقاليم آسيا القاصية أن تتلقى آنذاك اندفاع السيل العربي الجارف . وكما هو الشأن في الغرب ، كان مما سهل تقدمهم ضعف الإمبراطوريات التي واجهتهم . فقد عمت الفوضى بلاد الترك الذين ظلوا قبل ذلك بمحو إلى قرن من الزمان سادة لآسيا الوسطى ، وانحلت هرى الإمبراطورية الضخمة لخاتم الأعظم فصارت مجموعة مضطربة من القبائل المتناحرة . وأخذ فرسان المسلمين عند ذاك يزحفون قدماً على هراة وبلغخ (٦٥١) . وتوقف الزحف ردهاً من الزمان بسبب ما نشب في العراق من خلاعات ثم لم يلبث أن مضى في سبيله من جديد ، ولم تنقض عشرون سنة أخرى حتى سقطت أمام الزحف المظفر بخارى وسمرقند . وفي بواكير القرن التالي انسابت

موجة جديدة من الفتوح صوب الشمال الشرقى ، حتى بلغت تخوم الصين ، يوم بلغت أسرة تانج الصينية الباهرة أدنى دركات الانحطاط ، وأوشكت التركستان الصينية على السقوط : لولا أن برزت قوى جديدة فى الصين ، فما وافى القرن الثامن حتى عادت الأمور إلى لصاها . وعند ذلك كانت قدم الإسلام قد وطلت راسخة بكل من بلخ وسمرقند ، وسيطرت قبضته على التركستان الغربية ، وأمسى متحكماً فى ممرات هضبة البامير ، وفى تلك الأثناء توغل الفرسان المسلمون فى الشمال الغربى من الهند . وكانت إمبراطوريات ذلك الإقليم وهى السند وكشمير والبنجاب تخضع لأمراء الجوبنا النازلين جنوبى تلك الإمبراطوريات . على أن هذه السيادة لم تلبث أن انهارت قرب نهاية القرن السابع ، ولذا فإن المد الكامل للفتوح الإسلامية الذى بدأ فى مستهل القرن التالى ، حمل راية العرب المظفرة إلى صميم حوض السند ، ووضع أساس العظمة التى بلغها فيما بعد أمراء البنجاب .

فتح مصر وشمال إفريقيا

على أن فتح مصر إلى الغرب كانت له أهمية مباشرة بالغة ، وقد جاء على أثر فتح الشام ، وكما هو الشأن فى جميع الحالات السابقة ، سبقت احتلال مصر حملة نهب لقيت من النجاح المفاجئ ما شجع على القيام بعمليات أوسع . على أن القيام بالحملة كان أمراً لا مفر منه . فبالإضافة إلى ما تملكه مصر من الأراضى الثنية بالقمح ، وما لها من مركز عظيم الأهمية التجارية ، فإنها كانت مصدر تهديد مقيم لبلاد الشام الإسلامية ، كما كانت قاعدة بحرية دائمة لكل ما نشته يزنطة من هجمات مضادة . وكانت الإسكندرية هى المركز الرئيسى لبناء السفن فى شرق البحر المتوسط ، ثم قبض لها إبان القرون التالية أن تصير مهداً لقوة الإمداد البحرية النامية .

وعلى الرغم من أن تفاصيل الفتح ليست واضحة ، فقد برزت فيه شخصيتان كبيرتان . فكان زعيم المقاومة البيزنطية هو البطريرك كيروس (Cyrus) ، الذى كان يتولى كذلك مقاليد الإدارة المدنية فى البلاد . وكان قائد القوات العربية هو عمرو بن العاص وهو قائد محنك أظهر جدارته فى حروب الشام . وتركز الفتح فى حصار حصن بايلون ، وهو يقع غير بعيد من القاهرة الحديثة . ومن الصير علينا أن نصدر تقديراً لسياسة كيروس المعقدة : إذ يبدو أن أهم ما كان يبغيه هو الوصول إلى اتفاق يتفادى به إهراق الدماء بغير جدوى ويحول دون تدمير الممتلكات ، وكانت نتيجة ذلك أن حصن بايلون سلم فى (٦٤١) بعد أن صمد فى دفاعه عدة أشهر ، ثم فتحت أبواب الإسكندرية فى السنة التالية بمقتضى معاهدة كان الداعى إلى عقدها كيروس نفسه ، ثم تواصل بعد ذلك إخضاع ما تبقى من القطر المصرى ، وقد درت سياسة المسلمين فى تلك الأيام الأولى كما أشرنا آنفاً على عزل الضمير العربى عن باقى سكان البلاد المفتوحة ، وجعل العرب طبقة حاكمة تنعم بامتيازاتها الخاصة . ومن ثم اختيرت عاصمة جديدة قرب حصن بايلون القديم فظهرت فى الوجود مدينة الفسطاط أو مصر القديمة ، لتكون المركز الرئيسى لسلطان العرب ، مثلما حدث فى بلاد العراق أن مقر الحكم لم يجعل فى الممان (طيشفون) بل فى الكوفة (بالقرب من الحيرة) ، لتكون قلعة العروبة الإسلامية . وعلى هذا النحو ، يمكن القول إن استكمال فتح شمال إفريقيا بدأ بإنشاء مدينة القيروان الضخمة .

مِلَادُ الْعَصْرِ الْوَسْطَى

٣٩٥ - ٨١٤

تأليف

هـ. سانت ليوب. موسى

ترجمة

الدكتور السيد الباز العريخي

ترجمة

عبد العزيز توفيق جادو

١٩٦٧

الناشر

عالم الكتب

٢٨ شارع عبد القادر تروت. القاهرة

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

مكتبة جامعة القاهرة
مكتبة جامعة القاهرة
١٩ مكتبة الأوسن ش المجلس
١٩٤٠٩٨ : مليون